الحلم

للكاتب الايرلندى لورد دنسانى

رأيت فى المنام أنى اقترفت جرماً عظيماً رفضوا من جرائه أن يدفنونى فى الأرض أو فى البحر، بل لم يكن لى مكان حتى فى الجحيم.

عرفت ذلك وأنا فى انتظار مصيرى عندما أقبل أصدقائى وقتلونى سراً فى احتفال دينى أضاءوا فيه الشموع، ثم حملونى بعيداً عن لندن، ورحلوا فى دجى الليل وساروا فى طرق موحشة بين صفين من الديار الصغيرة حتى وصلوا إلى النهر، وكان فى صراع مع مد البحر بين الضفاف الموحلة وفى ظلام الليل الدامس، فرمتهما دهشة جافية من رؤيتهما أصدقائى وقد انعكست أنوار شموعهم على صفحة الماء. أدركت كل ذلك بينما كانوا يحملون جثتى المتيبسة، فقد كانت روحى لا تزال بين عظامى لأنه لم يكن لها مأوى فى السماء

ونزلوا بى درجاً أخضر موحلاً، فدنوت شيئاً فشيئاً من الطمى المرعب. وهناك حفروا حفرة قليلة الغور وأرقدونى فيها بين المهملات. ثم أتلفوا فجأة بشموعهم فى النهر، فانطفأت شعلتها وانسابت تندفع مع المد صغيرة شاحبة. وجعلت أراقب شروق الفجر وأشاهد أصدقائى يتسللون خفية الواحد تلو الآخر وقد توشحوا معاطفهم.

وأقبل الطمى وغطى كل شىء عدا وجهى. ورقدت هناك بين المفقودات والأحجار المتداعية والمهملات وكل ما هو فى طى النسيان، وقد تخلصت من إحساساتى، لأنى كنت ميتاً – قتيلا ولم يبق لروحى التعسة سوى الإدراك والتفكير. وبزغ الفجر فأبصرت الديار المهجورة تزخر بها حافة النهر، وقد أطلت علىّ نوافذها الميتة تحدق فى بأعين لا حياة فيها، نوافذ يجثم وراءها الشر وقد خلت من أرواح البشر. وازددت جهداً وأنا أتطلع إلى تلك المهملات فأشعر بالرغبة فى البكاء دون أن أبكى لأنى فى عداد الأموات. ثم عرفت ما لم أكن أعرفه من قبل – أن هذه الديار المهجورة كانت تود أن تبكى مثلى طوال الأعوام التى مرت عليها. ولكنها بكاء لا حياة فيها. وكم كنت أود أن تبكى هذه الأشياء المتراكمة المهجورة فأشعر بالراحة لبكائها، ولكنها كانت أيضاً ميتة كفيفة البصر، وكان حالى مثل حالها، فقد حاولت البكاء فلم يتساقط الدمع من عينى.

وكنت أعرف أن النهر يستطيع لو أراد، أن يحنى بنا، ويحنو علينا، ويغنى لنا. ولكنه كان يندفع جاريا دون أن يفكر فى شىء سوى ما يحمله معه من سفن فاخرة.

وأخيراً فعل المد ما لم يفعله النهر، وأقبل وغطانى، فانتشت روحى بعد أن رقدت تحت الماء الأخضر، وخالجها اعتقاد أنها مدفونة فى البحر. وما انحسر الماء حتى رجعت إلى الطمى بين المهملات وعدت إلى مشاهدة الديار المهجورة وعادت إلى معرفتى بأننا جميعاً أموات. ثم بدا لى فى نفق حالك وممرات سرية ضيقة تخترق ذلك الحائط الكئيب الواقع خلفى وقد غطته الأعشاب الخضر، فأقبلت منها الجرذان تتسلل لتقرضنى، وابتهجت روحى عندئذ، واعتقدت أنها ستغدو حرة، فتخترق نطاق تلك العظام الملعونة التى رفض دفنها. ولكن سرعان ما ولت الجرذان هاربة مبتعدة عنى، ثم جعلت تتشاور فيما بينها، ثم لم تعد إلى بعد ذلك. وهنا عرفت أنى ملعون حتى بين الجرذان، وحاولت عندئذ البكاء دون جدوى. ثم أقبل المد وعاد يتأرجح حتى غطى الطمى المهول، وأخفى الديار المهجورة، وواسى الأشياء المهملة، وأراح روحى فترة وهى مدفونة فى مياهه. وأخيراً هجرنى وابتعد.

وهكذا أصبح المد يقبل ثم يعود سنين عديدة، إلى أن وجدنى بعضهم، فانتزعونى من الطمى ودفنونى دفناً لائقاً. وما أن رقدت فى أول رمس حتى عاد أصدقائى وأخرجونى منه وأعادونى إلى حفرتى فى الطمى

وكم من المرات تجد عظامى مدفنا لها على كر السنين، وفى كل مرة يكمن أحد هؤلاء الرجال المرعبين، حتى إذا ما أتى المساء يقبل فيحفر ثم يخرجنى من رمسى ويحملنى ويعود بى إلى حفرتى الأولى.

وفى ذات يوم مات رجل من هؤلاء الذين فعلوا بى هذا الفعل المروع. وسمعت روحه تتصاعد فوق النهر عند الغروب. وحينئذ أشرق فى روحى الأمل.

ومضت الأسابيع عندما وجدونى مرة أخرى، فأخرجونى من ذلك المكان المتقلقل ودفنونى فى أعماق الأرض المقدسة. وعاود روحى الأمل فى أن تظل هناك أبدا. ولكن سرعان

ما أقبل رجال متشحون بالعاطف ويحملون الشموع ، وأعادوني إلى الطمى . لقد أصبح ذلك الأمر لهم تراثاً وتقليداً . وسخرت مني المهملات في قلوبها الصم عند عودتي ، فقد كانت تغار مني لتركي الظمى . وكنت لا أزال أذكر أني لا أستطيع البكاء .

ومرت السنين تجرى كما يجرى النهر صوب البحر حيث الزوارق ترحل وتعود والسفن الهائلة العائمة يبتلعها الموج ، وما زلت راقدا بلا أمل ، لأني لا أجرؤ أو آمل دون سبب ، نتيجة حسد المهملات الروع وغضبها الشديد .

وفي ذات يوم هبت عاصفة هوجاء ، أقبلت جنوباً من بعيد ، قادمة من البحر ، ثم عرجت على النهر تصاحبها الريح الشرقية العاتية ، وتغلبت على الجزر وهي تسير في خطى واسعة فوق الطمى الناعم . وابتهجت المهملات واختلطت بغيرها من الأشياء المبتهجة ، وانساقت السفن الفاخرة وهي تطفو من أعماق الماء ، وأخذت العاصفة عظامي من مرقدي الموحش ، فشعرت بأمل يترعرع في نفسي في أنه لن يمكر على الجزر سفو مرقدي بعد ذلك . وعندما انحسر المد كانت العاصفة قد ولت تفتق أثر النهر صوب الجنوب ، ثم عادت إلى مقرها بعد أن بعثرت عظامي بين جزر كثيرة على طول السواحل . وكادت روحي أن تتحرر من أغلالها عندما ارتفع المد الداهق تحت ضوء القمر وهبت بها تركه الجزر ، ولم عظامي من هذه الجزائر وعاد بها من هذه السواحل ، ثم ذهب ينشق صوب الشمال حتى وصل إلى مصب التيمس ، وهناك تحول غرباً والتقى بالنهر وصعد معه حتى اقبل إلى الحفرة فألقى فيها عظامي . ثم انحسر المد فشاهدت أعين الديار الميتة ، وشعرت بغيرة المهملات التي لم تحملها العاصفة .

ومرت قرون على ذلك التنازع بين المد والجزر ، ولا زلت تحت قبضة الطمى بين هذه المهملات الموحشة ، وأنا عاجز عن التحرر من أغلاله . واشتقت إلى حنان الأرض الدافئة ، وأحضان البحر الخضم .

وكان الناس بعض الأحيان يمشون على عظامي فيدقونها . ولما كانت التقاليد لا تزال على حالها من الوجود فقد أصبح خلفاء أصدقائي يقومون داعاً بإعادتي إلى الطمى . وأخيراً انقطع أبحار السفن ، وخبا ضوء النهار ، ولم يعد يطفو على الماء إلا جذوع الأشجار القديمة وقد اقتلعتها الريح من جذورها . وشعرت مع الزمن بنمو الأعشاب بجواري وأخذت الطحالب تنبت فوق الديار الميتة . جعلت أراقب هذه التطورات سنين عديدة إلى أن تأكدت تماماً أن لندن في طريقها إلى الفناء . وحينئذ أشرق الأمل مرة أخرى ، مع أني كنت أعرف أن كل من يجرأ على أن يأمل وسط الطمى يثير عليه غضب المهملات الملقاة على ضفتي النهر . وشيئاً فشيئاً تداعت الديار المخيفة ، ووجدت لها مدفناً لا تفتأ بين الأعشاب والطحالب . ثم تفتحت الأزهار البرية واستطالت النباتات المتسلقة ، وأطلت فوق الأكمات . وحينئذ عرفت أن الطبيعة قد انتصرت وأن لندن قد أصبحت أطلالا . وأقبل آخر إنسان إلى الحائط بجوار النهر في معطف رث من تلك المعاطف التي كان يرتديها أصدقائي ، وحدق ليرى إذا كنت لا أزال هناك ثم رحل ولم أشاهده بعد ذلك . لقد رحلوا جميعاً كما رحلت لندن .

وبعد أيام ، أقبلت الطيور الشادية ، ونظر بعضها إلى بعض عندما شاهدتني ، ثم طارت بعيداً عني وجعلت تتشاور فيما بينها ، فقال أحدها « أنه لم يأثم في حقنا ، وإنما أثم ضد الإنسانية » فقالت « إذن دعونا نحوم عليه » .

ثم حطت بالقرب مني وأخذت تغرد . واستمعت إلى شدو الثنائي منها عند الشروق ، على ضفاف النهر ، وفي عنان السماء وخلال الغابات ، وتعالى غناؤها عندما سطع الضوء ، وازدحمت فوق رأسي حتى أصبحت آلافا مؤلفة ، ثم ملايين ، ثم لم أر أخيراً إلا أجنحة تصطفق تحت قبة السماء وارتفعت روحي من عظامي الراقدة في الحفرة الموحلة ، وأنا أستمع إلى هذه الأغاريد الشجية ، وأخذت تتعالى في عنان السماء مع الألحان . وبدا لي كأنما قد شق طريق بين الطيور ، ارتفعت فيه روحي وظلت ترتفع حتى دلفت إلى الجنة من أحد أبوابها الصغيرة وقد فتح على مصراعيه في نهاية السماء . وعندئذ عرفت أني قد انتشلت من ذلك الوحل ولن أعود إليه مطلقاً ، فقد وجدت لجأة أني أستطيع البكاء .

وفي نفس اللحظة فتحت عيني فوجدتني في فراشي بلندن ، وسمعت الطيور تغرد فوق شجرة في الخارج تحت أشعة الصباح الخلابة . وكانت عيني مبتلة بالدموع ، فإن إرادة الإنسان أضعف ما تكون أثناء النوم . وهببت من فراشي وفتحت النافذة ، وبسطت ذراعي فوق الحديقة الصغيرة ، وباركت الطيور التي أنقذني شدوها من حلمي الطويل المخيف المزعج .

محمد فتحي عبد الوهاب